الاشتغال الدلالي لأصوات اللين في القرآن الكريم

د. إسماعيل زغودة
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف – الجزائر

ملخص البحث:

الصوت من المفاهيم التي شغلت بال الإنسان منذ القدم، حين راح يكتشف ما حوله في الطبيعة، فحاول محاكاة ما جاد به محيطه من أصوات وضمّنها في لغته ووسائل اتصاله.

ولما كان الأمر كذلك ظهرت حديثا مجموعة من العلوم الإنسانية في مقدمتها علم الأصوات الذي بحث في الصوت ووظيفته وأهميته وصفاته.

يحاول هذا البحث الكشف عن أهمية أصوات اللين (المد) واشتغالها في اللغة العربية عامة، وفي القرآن الكريم على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: أصوات اللين، وظيفة، اشتغال،اللغة، القرآن.

Abstract :

Sounds are phenomena that attracted the attention of the human being throughout the history. Since the antiquity there was an attempt to discover the sounds to include them in the human phonation and therefore to concretize communication.

With the advent of the human sciences ; it seems that phonetics is specialized in the study of the sound : its function, its production, and its characteristics.

This study tries to demonstrate the importance of the long vowels and its way of functioning in the Arabic language in general ; and particularly in the Holy Quran.

Key words : Long vowels – Function – Functioning – Language – Arabic- Holy Quran.

تمهيد:

يعد الصوت الميزة المتفردة بمظهرها الفيزيقي التي تثبت وجود اللغة وتعبر عنها، حيث أننا نلمس وجود اللغة وحضورها الدائم من خلال التواصل اليومي عن طريق الكلام، فالصوت هو الأساس الذي تبنى عليه اللغة بألفاظها وصيغها وتراكيبها ونصوصها النثرية والشعرية، ونظرا لهذا نلقى جل الباحثين اللغويين يدرسون المستوى الصوتي، بل هو أول مستوى في الدراسة اللسانية كونه يهتم بأصغر وحدة لغوية هي الصوت.

ولما للصوت من أهمية في الدراسات اللغوية، شغل بال القدماء والمحدثين، فنجد في الدراسات العربية القديمة اهتمامًا كبيراً بالأصوات ومخارجها، بل ونجد بعض الاختلافات بين الدارسين ما يثبت تطور هذا العلم من فترة إلى أخرى ومن دارس لآخر، وهذا الاختلاف في التنوع زاد ذيوعًا وانتشاراً في العصر الحديث مع تطور الوسائل التكنولوجية وأصبحت دراسة الأصوات تتم في المخابر وبواسطة أحدث الأجهزة وأصبح الاهتمام بهذا العلم حتمية لأي دراسة لغوية.

فطبيعة علم الأصوات جعلته يربط عدة علاقات مع جميع العلوم والمعارف، حيث أننا نلقي تلازمًا في الكثير من الأحيان، وذكر علم الأصوات يستلزم حضور علم من العلوم الوثيقة، كعلم الدلالة، وعلم اللغة بصفة عامة كعلم النحو وعلم الصرف والبلاغة كما لعلم الأصوات علاقات وثيقة خارج اللغة كالعلوم الطبيعية والتكنولوجية التي يستأنس لها علم الأصوات لمعرفة المخارج، والموسيقى التي تهتم بالصوت وجماليته.

نظرا لهذه الأهمية البالغة التي اكتسبها الصوت منذ الأول ولا زال إلى اليوم يثير جدلا في أوساط الباحثين والأكاديميين أردنا البحث في أصوات اللين محاولين الإجابة عن بعض الإشكالات التي قد تواجه أي باحث في علم الأصوات وعلاقته بالعلوم الأخرى .

- هل للأصوات دلالة موسيقية؟
- لماذا تشبع العرب في الكتابة العروضية في العجز والضرب بأحد أصوات اللين دون غيرها من الأصوات؟
- ما دلالة الفاصلة القرآنية التي تنتهي بصوت من أصوات اللين؟

مفهوم الصوت:

أ- **لغة:**

صوت فلان بفلان تصويتا أي دعاه. وصات يصوت صوتا فهو صائت بمعنى صائح. وكل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات. ورجل صائت: حسن الصوت شديده. ورجل صيّت: حسن الصوت. وفلان حسن الصيت: له صيت وذكر في الناس[1].

ب-**اصطلاحًا:**

هو ظاهرة طبيعية اختلف الدارسون في وصفها وتعريفها فمنهم من ربطها باللغة ومنهم من ربطها بالطبيعة لأن الأصوات في جوهرها تنقسم إلى أصوات لغوية وأخرى غير لغوية ويمكن تمثيل ذلك في الخطاطة الآتية:

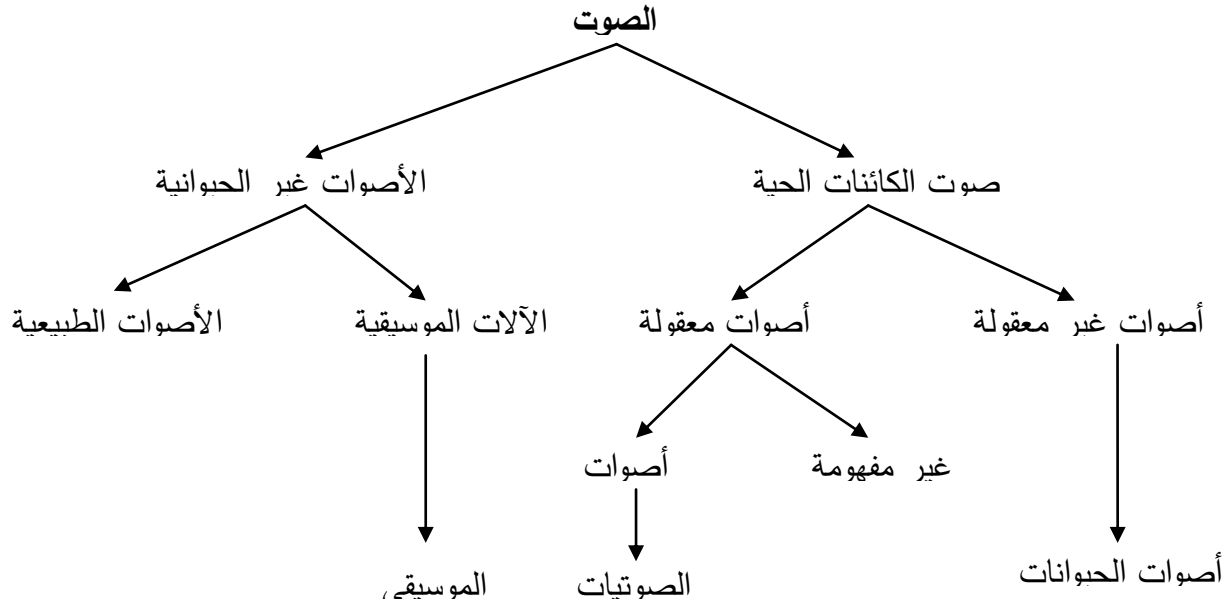

من خلال هذه الخطاطة نستنتج أن للصوت علاقة بالموسيقى ، إذ أن الكلام المفهوم يتعالق ويرتبط ارتباطًا وثيقا بالموسيقى، والصوت يكتسب الخاصية النغمية عندما يؤدي دوراً موسيقيا تستلذه الأذن، يقول ابن جني:" ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذّ لسامعه فحفظه، فإذا حفظه كان جديرًا باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به، ولا

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيرت لبنان، ج2، ص:381.

أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعماله ما وضع له، وجني به من أجله"[1].

والصوت بوصفه العام هو "حركة تذبذبية تصدر عن جسم مصوت فتنتقل هذه الذبذبات عبر وسط سائل أو غازي أو صلب ليصل إلى الجهاز السمعي، فيتم تحليله لتحصل الاستجابة بعد ذلك"[2].

لا يقتصر الصوت على اللغة أو على التواصل الفيزيائي الذي يمثله الكلام بين البشر وإنما يتعدى عن ذلك ليشمل كل أجزاء الطبيعة، كما لاحظنا ذلك في الخطاطة السابقة، وهذه الأصوات تنقسم إلى قسمين:

الأول: طبيعة كصوت الحجر والحديد والخشب والريح، أي أنها أصوات لظواهر طبيعية، ولما في الكون من مكونات جامدة، والثاني: آلية كصوت الطبل والأوتار وما شاكلها[3].

إذا كانت اللغة هي النظام العام الذي يكفل التواصل السليم المنطقي بين البشر، فإن الصوت هو دليل وجودها واستمرارها، والتاريخ القديم يثبت هذه الفكرة من خلال انتقال جل النصوص الدينية وغيرها إلينا عن طريق الرواية الشفوية أي عن طريق الصوت إلى عهد غير بعيد عند ظهور الكتابة، فالصوت إذن "هو الأساس الذي يقوم عليه بناء مفرداتها وصيغها وتراكيبها، بل وأدبها كله شعرًا أو نثرًا، لذلك لابد لدارس اللغة من دراسة أصواتها"[4].

لا ضير إن قلنا أن اللغة بحروفها وأصوات كان لها اشتقاق من أصوات الطبيعة أو نوع من التطابق حتى وإن لم يكن مقصودًا أو محللاً.

ربط ابن سينا حين وصف اللغة من الناحية الشفوية السمعية بما يناسبها أو يشبهها في الطبيعة ، فراح يعدد الأصوات ومدى تعالقها بالطيعة، حيث أفرد لها فصلا وسمه بـ:أسباب حدوث الحروف، فاستنتج انه بالإمكان حصول أصوات من دون نطق تشبه الأصوات المنطوقة المعرفة في لغة التواصل فمثلا يمكن حدوث صوت التاء يقرع الكف بإصبع قرعا قويا، والراء تحدث عن تدحرج كرة على لوح من خشب من شأنها أن يهتز اهتزازا غير مضبوط بالحبس...[5].

وعليه لابد للدارس أن يكون على دراية بخبايا وأسرار الطبيعة من الناحية الصوتية حتى يتمكن من معرفة علاقة الصوت اللغوي بشبيهه في الطبيعة، فتفسير الظواهر الصوتية ينبني على المعرفة التامة بأحوال الأجسام الطبيعية المحدثة للأصوات ، كما يجب على المشتغل بهذه الصناعة أن يعرف الأجسام التي لا تحدث أصواتا ولا أنغامًا ومعرفة سبب ذلك[6].

شغل الصوت بال الدارسين اللغويين والطبيعيين على حد سواء، فيمكن أن ننظر إليه من الناحية اللغوية، ومن الناحية الطبيعية، وعليه فيمكن للغوي أن يمدنا بتغاير أغفلها الفيزيائي، كما للفيزيائي نظرة تجاه الصوت، فمن الناحية الفيزيائية فالصوت هو اضطراب مادي في الهواء يتمثل في قوة أو ضعف سريعين للضغط المتحرك من المصدر باتجاه

---

[1] ابن جني، الخصائص، تح: مُحَّد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ط4، ج1، ص217.

[2] عبد الحميد زاهية، علم الأصوات وعلم الموسيقى دراسة صوتية مقارنة ، دار بافان، الأردن، ط1(2010)، ص41.

[3] ينظر: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار صادر، بيروت، ج1، ص168.

[4] حني عبد الجليل يوسف، التمثيل الصوتي للمعاني، دراسة نظرية وتطبيقية في الشعر الجاهلي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1(1417-1998)، ص13.

[5] ينظر: مُحَّد صالح الضالع، علوم الصوتيات عند ابن سينا، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، (2002)، ص41.

[6] ينظر: عبد الحميد زاهية، مرجع سابق، ص 22-23.

الخارج، ثم في ضعف تدريجي ينتهي إلى نقطة الزوال النهائي"[1].

والصوت كذلك هو "الظاهرة الطبيعية التي هي عبارة عن الذبذبات والاهتزازات الصادرة من الجسمين المتلقيين، وتنتقل خلال الوسط الناقل للصوت-كالهواء- في شكل موجات متتابعة حتى تصل إلى آذان السامعين"[2].

ما يمكن التوصل إليه هو أن الصوت ظاهرة طبيعية عرفها الإنسان منذ أن وطأت قدماه وجه المعمورة، ولا يمكن الاستغناء عنه لأنه السبيل الأوحد لعملية الاتصال الفطري السليم، ولعل أول كلمة أنزلت على الرسول ﷺ هي"اقرأ" والقراءة هي أصوات ،والطبيعة أصوات، والفرح أصوات، والحزن أصوات، والنوم أصوات، والمشي أصوات، ولكل صوت دلالة.

أصوات اللين المفهوم والمصطلح:

تعددت المصطلحات الدالة على هذا النوع من الأصوات منها ما هو قديم ومنها ما هو حديث، بيد أننا نجد جل هذه الدراسات تتفق حول ثلاثة أصوات هي الألف والواو والياء وإن كان هناك بعض التميز من باحث إلى آخر، ويقدم كل دارس سبب تسميته بحجج وبراهين يتقبلها العقل والمنطق، كما أننا نتحسسها ونضبطها أثناء التجريب.

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي مبررا تسميته:".... الواو والياء والألف اللينة...سميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف"[3].

ما يتعلم من نص الخليل أن هذه الأصوات الثلاثة لا مخرج معين تُنسب إليه ، فهي حرة طليقة ، لأن أثناء نطقها يتسع الجهاز الصوتي، وعند اتصالها بصوت آخر تعطيه نوعًا من التميز والطول.

وينحى سيبويه المنحى نفسه في التسمية وفي وصف هذه الأصوات على أنها أصوات خفية، ومزجها يتسع ويتمدد أكثر من أي مخرج آخر لمخارج الأصوات الأخرى، يقول:

" وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتّساع مُخرجها ، وأخفاهن وأوسعهن مُخرجا: الألف، ثم الياء، ثم الواو"[4].

وسماها ابن جني بحروف العلة، وهذه التسمية الشائعة في ميدان النحو والصرف، وقد أورد سبب إطلاقه هذا الاسم عليها حين قال:" لو لم يعلم تمكُّن هذه الحروف في الضّعف إلاّ بتسميتهم إياها حروف العلة لكان كافيا وذلك لأنها في أقوى حالاتها ضعيفة ، فأمرها مبنيّ على خلاف القوة، وإنّ أذهب الثلاث في الضعف والاعتلال الألف، ولما كانت كذلك لم يكن تحريكها البتة، ولذلك ما نجد أخف الحركات الثلاث وهي الفتحة مستقلة فيها"[5].

فتسمية ابن جني لهذه الأصوات حروف العلة لها أكثر من دلالة، منها أن الحروف (ا.و.ي) متغيرة غير ثابتة على صورة واحدة، وعليه تؤرق الباحث لمعرفة صفاتها واشتغالها، كما أنها تتميز الضعف والانقلاب والسقوط، وتدخل عليها عدة ظواهر لغوية كالإبدال والإعلال والحذف والقلب.....

---

[1] خليل إبراهيم عطية، في البحث الصوتي عند العرب، دار جاحظ للنشر ، بغداد(1973)، ص26.

[2] عبد الغفار حامد هلال، الصوتيات اللغوية د. تطبيقية على أصوات اللغة العربية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، (2009)، ص23.

[3] العين، مرجع سابق، ج1، ص57.

[4] سبويه، الكتاب، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2(1402 هـ- 1972م)، ج4، 435-436.

[5] الخصائص، مرجع سابق، ص93.

أما الأصوات الضعيفة فهي تسمية أخرى أطلقها ابن سينا على الألف والواو والياء... أما (الألف المصوتة) وأختها(الفتحة) وأظن أن مخرجها مع إطلاق الهواء سلسًا غير مزاحم، أمات (الواو المصوتة) وأختها(الضمة) فأظن أن مزجها مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وسيل به سلسل إلى فوق، وأما(الياء المصوتة)وأختها(الكسرة) فأظن أن مخرجها من إطلاق الهواء من أدنى تضييق للمخرج وميل به سلسل إلى أسفل.

ثم ليس أمر هذه الثلاثة على مشكل ، ولكني أعلم يقينا أن الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف، وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة والياء المصوتة إلى الكسرة[1].

يفهم من كلام ابن سينا أن هذه الأصوات الثلاثة شبيهة بالحركات غير أنها تستغرق زمنا أطول منها أثناء الانتقال من حرف إلى آخر مثال: جا= حرف+ حركة+حركة طويلة.

تعددت المصطلحات التي أطلقت على هذه الأصوات الثلاثة، وكل تسمية تفسر ظاهرة تتميز بها هذه الحروف، بل قد نجد باحثًا واحدًا يسميها بعدة أسماء، فابن الجزري ذكر في مؤلفاته تسميات كثيرة منها حروف المد واللين وهي ثلاثة عنده: الألف والواو الساكنة التي قبلها ضمة، والياء الساكنة التي قبلها كسرة، سميت بذلك لأن الصوت يمتد بها ويلين في مخرجها وعند النطق بها وتارة يسمّيها الحروف الهوائية، ويعلّل التسمية بقوله: لأن كل واحد منهن يهوي عند اللفظ به في الفم معتمدة في خروجها على هواء الفم ويطلق تسمية أخرى هي الحروف الجوفية ، لأن مخرجها من جوف الفم، ويبرر تسميته لها بحروف العلة بأن كلام يتميز بالانقلاب والتغير لكن ليس كله وإنما بعضا منه ويتمثل في هذه الحروف الثلاثة ، وسماها كذلك بالحروف الخفية لأنها تندس في اللفظ إذا سبقت بحرف[2].

ومن المصطلحات التي أطلقت على الحروف، الأصوات الهاوية ، لأنها عند الإطالة تهوي إلى الحلق، وأطلق عليها كذلك "مصطلح الأصوات الذاتية على أصوات اللين والجامدة على ما عداها من الأصوات ويبدو من التسمية علتها، وهي أن حروف اللّين ليست لها من القوة عيب تكون مستقلة في جميع الحالات بل إنها في كثير من الأحايين تنقلب إلى حروف أخرى، أو تذوب في أصوات أخرى، ونجد فيها الحروف الصحيحة التي تكاد تكون مستقلة وقلّما تخضع لظواهر صوتية، تحولها إلى أصوات أخرى"[3].

ومصطلح الخفية تسمية أخرى أريد بها تعليل مدى عدم ظهور ارتباطها بها ، يقول القرطبي:" وأما الخفية...الألف والياء والواو، وذلك لاتساع مخرجهنّ، وأوسعهنّ مخرجا الألف لأنه لا علاج على اللسان فيها كالنفس... ثم الياء، ثم الواو"[4].

أما مصطلح الصوائت voyelles فهو لفظ جديد أطلقه علماء الأصوات المحدثين لكون أن هذه الأصوات إذا اقترنت بأصوات أخرى غيرت مجراها ودلالتها"وقد سمى المحدثون النوع الثاني بأصوات اللين(الصوائت) إذا انطلقت مع الهواء المندفع من الرئتين دون عائق يحجز الهواء في أي عضو من أعضاء النطق، وهذا يوافق ما سماه الأقدمون بحروف

---

[1] ينظر: ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تقديم ومراجعة: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (1978، 1998)

[2] ينظر: كواليزار كاكل عزيز، دلالات أصوات اللين في اللغة العربية ، دار دجلة ، عمان الأردن، ط1(2009)، ص:63.

[3] كواليزار كاكل عزيز، مرجع سابق، ص:63.

[4] القرطبي، الموضح في التجويد، دار الكتب العلمية، القاهرة، ص:97.

المد ، كما يشمل –أيضا- الحركات القصيرة(الفتحة والضمة والكسرة)"[1] .

وميز الصوتيون بين الصوائت الطويلة والصوائت القصيرة لتفريق بين حروف (الألف والواو والياء) والحركات التي تناسبها (الفتحة)(َ) والضمة(ُ) والكسرة(ِ) ، ونلحظ ذلك التناسق بين هذه الأصوات والحركات وإذا كان غير ذلك استبدل صوت بصوت آخر ومثال ذلك المجهول والمضارع من الفعل قال، حيث نجد أن حركة القاف تغير من الفتحة إلى الكسرة في الفعل المبني للمجهول مناسبة للياء : قِيل، وتستبدل بالضمة في المضارع نسبة إلى الواو، يقول"...والألف حرف مد دائما لأنها لا تقع إلا بعد فتحة وهي الحركة المجانسة لها وإلا غيرت إلى حرف آخر، والواو، إن سبقت بضمة والياء ، إذا سبقت بكسرة"[2].

ووردت تسمية (أشباه الحركات) (Semi voyelles) في كتاب دور علم الأصوات في تفسير قضايا الإعلال في العربية للباحث عبد المقصود مُحَمَّد عبد المقصود، للدلالة على تعالق الحركة مع حرف من حروف المد فتخرج من خانة الصوائت الطويلة إلى صنف الصوامت كمثيلاتها من الأصوات المعروفة" فالواو الساكنة الناشئة عن اتصال الضمة والفتحة في النطق- وفي مرحلة الاشتغال بينهما- في مثل(أوْعد)، وكذلك الياء الساكنة الناشئة عن اتصال الفتحة والكسرة- وفي مرحلة الاتصال بينهما- في مثل (أيْنع) يمكن أن يطلق عليها (أشباه حركات) (Semi voyelles) وذلك من الناحية الأصواتية"[3].

ومما يدل على ضعف هذه الأصوات وخفتها هو ذوبانها في الأصوات التي تتعالق معها، وهذه الصفة الصوتية ميزت اللغة العربية منذ القديم، يقول عبد الواحد وافي:" وحدث كذلك تناسخ في أصوات المد الطويلة نفسها، وخاصة في الألف للنية إذا أميلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وقال الآن في كثير من لهجات المغرب ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر من الغرب وفي بعض اللهجات في الشرقية وغيرها".

وأثبت الامتزاج الحاصل بين اللغة العربية وباقي اللهجات الأخرى في مصر والمغرب والجزائر ذلك الضعف الذي يميز أصوات المد، إذ تمكنت اللهجات من حذفها دون إخلال أو ضعفا،"ومن هذا القبيل كذلك من حدث في اللغة العربية بصدد أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة في آخر الكلمات،فقد تضاءلت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض "[4].

يمكن استخلاص مما سبق من الآراء مايلي:

– تعدد المصطلحات الدالة على مفهوم هذه الأصوات (ا.و.ي) كل بحسب مجاله اللغوي من نحو أو صرف أو علم الأصوات .

– اتفاق جل العلماء والدارسين قديما وحديثًا على أن الأصوات المخصوصة بالدراسة هي ثلاثة (ا.و.ي) ، وإن كان هناك بعض الاختلاف الذي نحسبه من قوة تفكير العقل العربي ومدى مطابقته للحقيقة.

---

[1] عبد الغفار حامد هلال، ص148.

[2] عبد الغفار حامد هلال، ص126.

[3] عبد المقصود مُحَمَّد عبد المقصود، دور علم الأصوات في تفسير قضايا الإعلال في العربية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، (2007)، ص34.

[4] عبد الواحد وافي، فقه اللغة،دار نهضة مصر، القاهرة، ط7 ، ص138.

– إن هذه الأصوات تؤدي دورًا مهمًا في بناء الكلمة ، كما أنها تعمل على تغيير المعنى.

– تعد هذه الأصوات من الأصوات غير الثابتة، كونها تتغير بالقلب أو الحذف.

– تؤدي أصوات المد دورا موسيقيا لا تؤديه الأصوات الأخرى، فعلم الموسيقى يلجأ إليها من أجل مد الأنغام والألحان، فتكسب الصوت لذة وجمالا، وآهات أم كلثوم خير دليل على ذلك"[1].

الاشتغال الموسيقي لأصوات اللين:

لأصوات اللين أو المد أهمية كبيرة في اللغة العربية، فتعتمد في اشتقاق بعض الصيغ كاسم الفاعل واسم المفعول وغيرها من المشتقات التي تنمي اللغة وتثريها"...كل ذلك وما إليه تدل عليه في اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها، وأصوات المد الطويلة هي التي يرمز إليها في الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة(الألف والياء والواو) والقصيرة هي التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة –فيضم القاف وكسر التاء وفتح اللام في قُتِلَ المجرم"مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعول ويمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة في قاتِل الذي يقاتلك...."[2].

تؤدي هذه الأصوات دورين مختلفين، يتمثل الدور الأول في أنها تؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها الأصوات الأخرى، كونها حروف هجاء كبقية الحروف الأخرى، أما الدور الثاني فهو دور يميزها لا تؤديها الأصوات الأخرى" فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام: ترمز أحيانا إلى ما وضعت في الأصل للرمز إليه (أكتب، يكتب، وعد) وأحيانا إلى أصوات المد الطويلة (كاتب، دليل، ملوك) وأدخل فيه كذلك نظام الحركات، وهي علامات تشير إلى تشديد الحرف وإلى تحركه بصوت مد قصير أو خلوه من الحركة"[3].

فالاستئناس إلى أصوات المد في النصوص الأدبية وخاصة منها الشعرية يكسبها حلاوة موسيقية تستلذها الأذن، ولا تنفر منها، لأنّ"حروف المد تسمح عبر الصوت بما يناسب مع ذلك التطريب الذي ينتظم التجربة الشعرية كما أن نهايات الأبيات تسمح بذلك التطريب الحاد الذي يتناسب مع تلك النشوة التي تعتري مجالس الخمر والطرب"[4].

فموسيقى أصوات المد لها دور في انشراح نفس الباث والمتلقي على حد سواء، كما أنها تُبقي السامع متعلق بما يلقيه المتكلم ومن ذلك أن جل المسلمين يتعلقون بالقرآن أيما تعلق، بل إنهم يميزون الأصوات من قارئ إلى آخر لما في صوته من حلاوة وطراوة يكتسيها من خلال المدود وأحكام التجويد التي تعتمد على موسيقى خاصة بكل صوت وعليه: فإن" فعل الموسيقى بين، ليس في الناس فقط بل في سائر الحيوان، فإن للرعاة أصواتا يستعملونها عند تسريحهم، وفي وقت جمعهم لما يرعونه من الإبل والغنم والخيل، ولكل واحد منهم أصوات قد عرفتها وميزتها"[5].

فأصوات المد لها مزايا موسيقية عديدة لما تتميز به من صفات لا تتغير بها بقية الأصوات، كما أنها تحتل المرتبة

---

[1] عبد الحميد زاهية، علم الأصوات وعلم الموسيقى، دراسة صوتية مقارنة، مرجع سابق، 111.

[2] عبد الواحد وافي : فقه اللغة، مرجع سابق،ص9.

[3] المرجع السابق، ص254.

[4] حني عبد الجليل يوسف: التمثيل الصوتي للمعاني، مرجع سابق، ص92.

[5] الحسن بن أحمد الكاتب: كمال أدب الغناء، تح: عباس عبد الملك خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص24.

الأخيرة في الكلام، فيعطيها المتكلم أو الموسيقي أهمية حتى يستحلى صوته ويقبل من المتلقي، فهي"المصوتة الطوال التي تقع أبدا على أواخر الكلام ممتدة في اللحن، فالألف حرف مستعل، والياء حرف منخفض، والواو حرف متوسط بين الاستعلاء والانخفاض"[1].

وبين هذه الأصوات اختلافات يبرزها ابن جني في الياء والواو، "...إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو. والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فنجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاجّ الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعدا هناك، ولأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينها بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت"[2].

فالعربية قديما وحديثا لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرك، كما أن الموسيقيين يعملون على مد أصواتهم في الخواتم الموسيقية والوصلات الغنائية"يلجأ الموسيقي إلى المصوتات لمد النغم والألحان، وكان الموسيقيون كما كان اللغوي، على وعي تام بأن هذه المصوتات تخلق مشكلا نطقيا وذلك لعدم إمكانية الابتداء به، وبالتعبير اللساني الحديث، استئناف المقطع في اللغة العربية لا يكون صائتا"[3].

فالكلام المقترن بأصوات المد يتميز بالأناقة والوضوح، ولهذا نجد المقرئين يهتمون بالمدود أيما اهتمام، فمن الحركتين إلى الأربعة إلى الستة، وكل مد منها له شروط وخواطر يستميز بها، ونظرا لما تتميز بها هذه الأصوات، صنفت في مقدمة سلم الجهر Echelle de sonorité[4].

نستشف هذا التوافق في الأصوات، والأناقة في نطقها والسهولة في مخرجها، والتأثير على مستمعيها في القرآن الكريم من خلال جل آياته التي تنتهي بفواصل صوتية تميزها عن جل الملفوظات أخرى، ولعل أصوات المد تؤدي دورًا موسيقيا في القرآن الكريم، ما يجعل النفس تنشرح له، والعقل يتأمله، والأذن تستلذه ، والقلب ينجذب إليه.

يقول الله تعالى:﴿ **وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾، فسورة الضحى أكسبتها المدود إيقاعًا مميزا، فهذه الفواصل القرآنية غاية في الأهمية كونها تساعد الحفاظ على معرفة خواتم الآيات ونهاياتها، وعليه فالحفظ يكون سلسًا سهلا، لا عائق ينتاب الحافظ كون أن النهاية معروفة سلفا.

ويبدو جليا أن الفواصل القرآنية الأكثر شيوعا تلك التي تحتوي على الأصوات اللينة، لما لها من أهمية على نفسية المتلقي وسلاسة في خروج الهواء خاصة عند الختام الذي لا بد أن يتميز بطول النفس " وتتميز أصوات المد واللين، وصوتا الغنة وبخاصة النون بخصوصية إيقاعية، فقد نص سيبويه في باب وجوه القوافي في الإنشاد أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون لأنهم أرادوا مد الصوت"[5].

---

[1] عبد الحميد زاهية: مرجع سابق، ص108.

[2] ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(2000)، ص:07.

[3] عبد الحميد زاهية: مرجع سابق، ص111.

[4] المرجع نفسه، ص114.

[5] عمر عبد الهادي عتيق، ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، التركيب والرسم والإيقاع، عالم الكتب الحديث، إربد لبنان،

ومن الإعجاز القرآني الذي يثبت أن لأصوات اللين دورًا في الإيقاع الصوتي من جهة، وفي الدلالات التي يحملها القرآن الكريم، من جهة أخرى، كون أن القرآن الكريم يحمل من العجائب الدلالية (التي تحملها ألفاظه) ما لم يوجد في نصوص البشر.

يقول الله تعالى:﴿**قُل هَل مِن شُرَكَائِكُم مَن يَهدي إِلَى الحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهدي لِلحَقِّ أَفَمَن يَهدي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدّي إِلّا أَن يُهدى فَما لَكُم كَيفَ تَحكُمونَ**﴾[1].

من المعروف في علم تجويد القرآن الكريم أن المد إذا ردف بهمزة فإن المقرئ يطيل فيه بمقدار ست حركات ليضفي على النص القرآني طابعًا إيقاعيا مميزًا، وحتى يتميز حرف اللين عن الهمزة التي تليه، والآية الكريمة السالفة الذكر تعبر عن عدول صوتي عجيب يخص صوت اللين في لفظ(يهدي) الذي تكرر خمس مرات فيها.

فالمد في الآية السابقة في لفظة(يهدي) يكون بست حركات في مواضع إردافه بالهمزة(يهدي إلى الحق) (أفمن يهدي إلى الحق) (أم من لا يهدي إلا...)، بينما في الموضعين الباقيين يكون المد عاديًا بحركتين فقط(يهدي للحق) (أن يهدي فما لكم كيف تحكمون).

فالعجيب لا يتوقف عند حدود الصوت وجماليته، وإنما يتعدى ذلك إلى الدلالة والسياق فإذا"تأملنا أولا أسباب اختيار المد في مواضعه في الآية مسترشدين بالسياق، وجدنا ذلك التناسق العجيب بين الآية بسياقها وما احتفى بها من دلالات آخر صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية"[2].

أما من الناحية الدلالية فالآية تعقد مقارنة بين هداية الله لعباده ومدى استحقاقه للعبودية، وبين هداية الآلهة المزعومة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فهداية الشركاء لا تتحقق حتى وإن طال طريقها، ولهذا جاءت الآية بأسلوب استفهامي غرضه التحدي كما أن صوت المد في لفظة(يهدي) جاء طويلا لاقترانه بالهمزة مما يوحي بطول طريق هداية الشركاء وانعدامها، ومما يعتبر ذلك معجميا إرداف لفظ يهدي بحرف الجر(إلى) الذي يفيد ببعد المسافة، فالغاية أن الشركاء لا يهدون إلى الحق ولو طال طريقهم، بينما الأمر الصوتي العجيب الآخر هو ذلك التحدي الذي لا يقبل المقارنة والموازنة، حيث يقول تعالى:﴿ قل الله يهدي للحق﴾، فمن الناحية الصوتية المد في لفظة (يهدي) يكون بحركتين، فالمد القصير يوحي بقصر طريق هداية الله سبحانه وتعالى خلاف هداية الشركاء، كما أن الله سبحانه وتعالى يهدي إلى الطريق المستقيم، وهو الطريق الأقصر للهداية، كما أن لفظ يهدي اقترنت بحرف اللام الذي يدل على قرب المسافة، وتفيد اللصاق بالهدف وعليه فهداية الله قريبة من الحق ولصيقة به[3].

"وهنا يأتي العدول الصوتي في كلمة(يهدي) التي لا نظير لها في السياق القرآني كله لتعبير بذلك التشكيل الصوتي، وتلك الطريقة النطقية عن البطء الشديد في الهداية يستفاد ذلك البطء في كسر الهاء التي تأتي من أقصى الحلق ليصطدم الصوت بالدال الأسنانية المشددة المكسورة التي يظل الصوت حبيسا عندها لتضعيفها ثم يتمادى به في الهوى مع الياء الممدودة مدا طويلا، لوجود سبب المد بعده وهو همزة إلا ليوحي ذلك المد بطول طريق الهداية مع بطئها الشديد كذلك.

ط1(2010)، ص:337.

[1] سورة يونس، الآية:35.

[2] ابن جني ، الخصائص، مرجع سابق، ص:51.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص:51، 52.

ثم يزداد عجبك بعد ذلك إذا تأملت أن تلك الهداية مع بطئها وطولها الشديد وتراخيها الأبدي منفية كذلك على كل حال، فهؤلاء الشركاء لا يهدون أبدا بحال من الأحوال ، إلا أن يهدوا، ولا تكون الهداية إلا من الله تعالى ، فهم لا يهدون أصلا من قبل أنفسهم.

وبهذا نرى ما لهذا العدول الصوتي من قيمة فنية في هذا السياق تتضافر مع العناصر الدلالية الأخرى"[1].

ومن الناحية الإحصائية للمدود في الآية السابقة، نجد خمسة مدود، ثلاثة كلها طويلة ومدان قصيران لعدم وجود السبب، وذكرنا آنفا أن المد الطويل في الآية يدل على طريق هداية الشركاء المديد الطويل، والمد القصير يدل على الطريق المستقيم الذي دل على هداية الله سبحانه وتعالى، فطريق الشركاء بثلاثة مدود طويلة لا تغلب طريق الحق في الهداية بمدين قصيرين.

من شأن هذه الأصوات أن تجعل اللغة ذات جمال إيقاعي مؤثر في نفسية السامع، يقف المتلقي مشدودا إليها محاولا الاستمتاع بخواصها الصوتية التي قد لا تتوفر عليها أصوات أخرى، كما أن هذه الأصوات تؤدي أدوارا أخرى تختلف عن مزاياها الإيقاعية خاصة في الجانب الدلالي، "إن الترنم والتطريب والوضوح السمعي ليست الخصائص الوحيدة لأصوات المد واللين، فأثرها ليس معزولا عن الدلالة، وذلك أنها حينما تؤثر فينا تأثيرا فنيا وجدانيا توقظ الحواس على معان لم نكن لندركها إلا من خلال إيقاع هذه الحروف الصوتية لأنها توقع على النفس هذه الذبذبات التناغمية وتطبعها على مشاعر الحس والوجدان"[2].

[1] ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، ص152-153.

[2] ينظر: عمر عبد الهادي عتيق، مرجع سابق، ص:237.